اللغة العربية الفصيحة في دعم الهوية القومية

أ.د. محمود أحمد السيد
وزير الثقافة في الجمهورية العربية السورية

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف وظيفة اللغة بصورة عامة، وأن نقف على نماذج من عناية الأمم الحية بلغتها القومية، ثم نقف على الدور الذي تؤديه اللغة العربية الفصيحة في دعم الهوية القومية، لنقدم بعضاً من أساليب تعزيز الانتماء للهوية القومية متمثلة في اللغة العربية الفصيحة.

أولاً: اللغة مفهوماً ووظيفة

إن مفهوم اللغة مفهوم شامل وواسع، إنه مفهوم منظومي يشتمل على اللغة المنطوق بها "لغة الأصوات"، واللغة المكتوبة والإشارات والإيماءات والتعبيرات الوجهية التي تصاحب عادة سلوك الكلام، إضافة إلى جميع صور التعبير من رسم ونحت ورقص وموسيقى... إلخ، ولا يعد التعبير بأصوات مقطعية إلا أحد أشكال اللغة. وتبقى اللغة الصوتية "اللغة المنطوق بها" هي وسيلة التواصل الأكثر شيوعاً واستعمالاً، والاقتصار على دراسة اللغة في صورتها المكتوبة يغفل النظام الصوتي في هذه اللغة وآثارها الممكنة على التراكيب والمعاني.

وتؤدي اللغة وظائف متعددة في حياة الفرد والمجتمع، فهي وسيلة الفرد للتعبير عن مشاعره وعواطفه وأفكاره، وبها يقضي حاجاته وينفذ مطالبه، ويحقق مآربه في المجتمع الذي يحيا فيه، وبوساطتها ينقل تجربته إلى الآخرين، كما أنه يطلع على تجاربهم الحاضرة والماضية وعلى تجارب الأمم الأخرى ولغاتها، واللغة هي وسيلة المرء أيضاً للتحكم في بيئته

لأنها أداة التفكير وثمرته[1].

واللغة هي وسيلة المجتمع أيضاً لتسهيل التلاحم الاجتماعي والتفاعل الاجتماعي والانصهار الفكري بين أفراد المجتمع والأمة، وهي مستودع تراث الأمة لأن كل كلمة تحمل في طياتها خبرة بشرية، وإلى هذا أشار المفكر "ماكس مورو" قائلاً: "باللغة وباللغة وحدها يندمج الفرد بالمجتمع، ويتلقى تراث الأمة الفكري والشعوري والأخلاقي والاجتماعي كله، التراث المنحدر من قرائح الكتاب والشعراء والمفكرين السابقين منهم والمعاصرين"[2].

ولا تقتصر وظيفة اللغة على الوظيفة المعرفية من حيث تعرف فكر الآخرين في المجتمع الواحد وفكر الآخرين في المجتمعات الأخرى، وإنما هنالك الوظيفة النفسية إشباعاً للحاجات النفسية وإرضاءً للميول والاهتمامات، وثمة الوظيفة الاجتماعية إعداداً للحياة الاجتماعية والتكيف مع البيئة المادية والاجتماعية، ونقلاً لتراث المجتمع من الأجداد والآباء إلى الأبناء والأحفاد، وإحياء لهذا التراث وتنميته وتجديده، وتقارباً للفكر في داخل الجماعة والمجتمع مما يساعد على إيجاد أساس ثقافي مشترك يعمل على وحدة الجماعة وتضامنها، وأخيراً يتم بوساطة اللغة التبادل الثقافي بين الشعوب المختلفة مما يؤدي إلى تقارب الثقافات والحوار بينها وصولاً إلى القواسم المشتركة التي تخدم الإنسانية عبر مسيرتها الحضارية.

وثمة ارتباط وتلازم بين اللغة والفكر، إذ لا يمكننا أن نتصور فكراً من غير لغة، ولا لغة من غير فكر، ذلك لأن اللغة ليست رموزاً ومواصفات فنية فحسب، ولكنها إلى جانب ذلك وفي الأساس منهج فكر وطريقة نظر وأسلوب تصور، هي رؤية متكاملة تمدها خبرة حضارية متفردة، ويرفدها تكوين نفسي مميز، فالذي يتكلم لغة ما يفكر بها، فهي تحمل في كيانها تجارب أهلها وخبرتهم وحكمتهم وبصيرتهم وفلسفتهم في الحياة لأنها وسيلة تفكير كما هي وسيلة تعبير"[3].

ثانياً: نماذج من عناية الأمم الحية بلغاتها القومية

للغة الأهمية الكبيرة في نشوء الأمم، انطلاقاً من كونها أداة التفاعل بين أفراد المجتمع، والرابطة التي تصهر أبناءه في بوتقة المحبة واللقاء والتفاهم وجسر الأمة للعبور من الماضي إلى الحاضر ثم من الحاضر إلى المستقبل.

ولقد أدرك بعض مفكري الغرب الأهمية التي تحتلها اللغة القومية، فعرّف المفكر "فيختة" الألماني الأمة الألمانية بانها جميع الذين يتكلمون اللغة الألمانية، وعدّها أساس القومية، فها هو ذا يقول: "إن الذين يتكلمون بلغة واحدة يكوّنون كلاً موحداً ربطته الطبيعة بروابط متينة وإن كانت غير مرئية".

وفي ضوء ذلك يعد "فيختة" اللغة والأمة أمرين متلازمين ومتعادلين، كما أشار "هردر" الألماني أيضاً إلى أن اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به وتحفظ فيه، وتنقل بوساطته أفكار الشعب، فقال: "إن لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، ولكن قلب الشعب ينبض في لغته، وروحه تكمن في لغة الآباء والأجداد"[4].

وعندما سئل "بسمارك عن أفظع الأحداث التي حدثت في القرن الثامن عشر أجاب: "إن المستعمرات الإنجليزية في شمال أمريكا اتخذت اللغة الإنجليزية لغة رسمية لها" وهو يعني أن كان في شمال أمريكا جاليات ألمانية كبيرة، وعند حصول هذه المستعمرات على استقلالها اتخذت اللغة الإنجليزية لغة رسمية لها، وكان يأمل أن تتخذ هذه المستعمرات اللغة الألمانية بدلاً من الإنجليزية كي يضمن ولاءها لألمانيا، وقد أثبت التاريخ صدق نظرية "بسمارك" ففي الحربين العالميتين الأولى والثانية كان ولاء أمريكا لإنكلترا، وولاء إنكلترا لأمريكا ووقوفها معها أيضاً في عدوانها على العراق على الرغم من معارضة الدول الأوروبية كافة. ومن مصادر هذه الولاء اللغة المشتركة التي تجمع بين الأمتين، إذ إن لوحدة اللغة أبلغ الأثر في تقريب التوجه الفكري والثقافي والرؤية المشتركة.

ولا يخفى على أحد مدى الاعتزاز باللغة الألمانية من المجتمع الألماني، والحرص على التكلم بها ولو كان الألماني يعرف لغات أخرى، والحرص على حمايتها وتمكين النشء منها، ولقد صدرت مجلة "دي فيلت Die welt" الألمانية بتاريخ 25 نيسان 1968 وعلى صفحتها الأولى عنوان عريض هو: لا شهادة ثانوية مع ضعيف في اللغة الألمانية" ويتضمن المقال حال طالبة ألمانية قضت لجنة الامتحان رسوبها في الشهادة الثانوية بسبب ضعفها في اللغة الألمانية على الرغم من نجاحها في بقية المواد، وقد أقامت الطالبة دعوى ضد لجنة الامتحان فحكمت المحكمة في فرانكفورت باعتماد قرار لجنة الامتحان، واستأنفت الحكم إلى كاسل kassel فأصدرت محكمة الاستئناف قرارها القاضي بتثبيت الحكم بأنه لا شهادة ثانوية مع ضعيف في اللغة الألمانية، ومعللة ذلك بان اللغة هي ركز وكيان وهوية وانتماء ووعاء للفكر وأداة للتفكير وبالتالي فهي أهم مادة في الامتحان[5].

وإذا انتقلنا إلى فرنسا فإننا نلاحظ أن الثورة الفرنسية منذ أواخر القرن الثامن عشر أدركت أهمية اللغة القومية الفصيحة في بناء الأمة، وأنه لا حرية حقيقية من رواسب الإقطاع، ولا كياناً حقيقياً للشخصية الفرنسية إلا بتمثل اللغة القومية ومعرفتها، فلقد قدّم الراهب "غريغوار" إلى مجلس الثورة تقريراً عن حالة اللغة الفرنسية جاء فيه: "إننا نستطيع أن نؤكد دون مغالاة أن نحواً من ستة ملايين من الفرنسيين وبخاصة في الأرياف لا يعرفون شيئاً عن اللغة القومية، وعدداً لا يقل عن ذلك إذا عرفوا شيئاً منها فإنهم لا يستطيعون أن يواصلوا التحدث بها، وعدد الذين يحسنون التكلم بها بفصاحة لا يتجاوز ثلاثة ملايين. أما الذين يستطيعون كتابتها على وجه الصحة فهم أقل من ذلك بكثير"، واقترح "غريغوار" حلاً لهذه المشكلة تمثل في محاربة اللهجات المحلية ونشر اللغة الفصيحة بين المواطنين جميعهم[6].

وفي فرنسا حالياً يرى المربي "Pierre Clarac" في كتابه "L'enseigement du francais" أن مدرس الرياضيات تحمر وجنتاه ويتطاير الشرر من عينيه عندما يخطئ الطالب في أثناء حل المسألة الرياضية خطأً لغوياً في لغته الأم، ويقول له: خطأك في لغتك أدهى وأمر من خطئك

في حلّ المسألة الرياضية[7].

وغني عن البيان أن الأمم التي وحدت كلمتها وبنت قوميتها وأظهرت كيانها وشخصيتها لجأت إلى اللغة وسيلة لذلك التوحيد وهذا البناء، فالوحدة الألمانية ومن بعدها الوحدة الإيطالية قامتا على أساس وحدة اللغة، وعلى أساسها قامت القومية البولونية والبلغارية واليونانية...

وعندما قامت الثورة الروسية اتخذ "لينى" قراراً ينص على ضرورة إتقان لغة الشعب من المسؤولين كافة.

وفي فيتنام خاطب الزعيم الفيتنامي أبناء شعبه قائلاً: "لا انتصار لنا على العدو إلا بالعودة إلى لغتنا وثقافتنا القومية"، ويقول في وصاياه للفيتناميين: "حافظوا على صفاء اللغة الفيتنامية كما تحافظون على صفاء عيونكم، تجنبوا أن تستعملوا كلمة أجنبية في مكان بإمكانكم أن تستعملوا فيه كلمة فيتنامية"[8].

ولِمَ نذهب بعيداً فها هي إسرائيل تقيم كيانها على إحياء اللغة العبرية، إذ كانت لأغلبية المهاجرين اليهود إلى أرض فلسطين لغة ألمانيا والنمسا وروسيا وبولونيا وأوروبا الشرقية عامة، وكانت لهذه اللغة آدابها، ولكنهم تركوها ليحيوا لغة أخرى ماتت عملياً منذ ألفي سنة ألا وهي العبرية[9].

وفي أيامنا المعاصرة نلاحظ التنافس بين الدول العظمى على نطاق الساحة الدولية في فرض لغاتها وتأمين سبل انتشارها وسيرورتها وفي الحافظ عليها وتأمين المنح للدارسين للإقبال على دراستها، وهذا التنافس يبدو جلياً بين فرنسا وأمريكا حتى باتت اللغة الإنجليزية لغة العولمة على النطاق العالمي، وهذا ما جعل أمريكا تضغط على المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة "اليونسكو" للحؤول دون اعتماد قرار التنوع الثقافي والتعدد اللغوي على النطاق العالمي، لأن في اعتماد هذا القرار حفاظاً على الذاتية الثقافية للشعوب واحتراماً للغتها القومية، وهذا ما يتنافى مع استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية في سيطرة لغتها كما

سيطرت عسكرياً على العالم، وفرضت حق القوة في جميع الميادين على المجتمعات الأخرى، ومن لم يكن معها في منهجها فهو ضدها.

ثالثاً: اللغة العربية والهوية القومية

إذا كانت بعض الأمم تقوم على وحدة الهدف السياسي، أو على وحدة الأرض أو الأصل والعادات والتاريخ المشترك فإن قوميتنا تتجلى أكثر ما تتجلى في وحدة اللغة، فاللغة هي رمز للهوية القومية والذاتية الثقافية، وهي رمز للكيان القومي وعنوان للشخصية.

ولئن كانت الثقافة هوية وانتماءً فإن الانتماء ما هو إلا وليد لعملية التفاعل الاجتماعي التي تبدأ مع اللحظة الأولى من حياة الإنسان، وتكون اللغة من أهم رموز التفاعل الاجتماعي والتواصل مع الآخرين، إذ إن لغتنا القومية ليست رموزاً جافة، وإنما هي دفقات مشاعر وحزم من العواطف والمعاني السامية، تتغلغل في حنايا النفس، فتستثير العقل، وتغذي الوجدان، وتسمو بالروح إلى آفاق الحق والخير والجمال، وتصهر أفراد المجتمع في بوتقة اللقاء الفكري والمشاركة الوجدانية والتعاطف النبيل.

ولما كانت اللغة أداة الثقافة والطابع الخاص الذي يميز شعباً عن غيره كانت لها المكانة الكبيرة لدى الأمم الحية، وإلى هذا أشار "René Maheur" المدير السابق لليونسكو إذ يقول "إن الأمة التي لا تؤمن بنفسها لا وجود لها، وذلك أنه لا يكفي أن يكون لها سفراء ورئيس دولة وعلم وموظفو جمارك... إلخ، فإذا لم يكن لشعبها طابع خاص به يعبر عن نفسه وخصائصه ومميزاته وطرائقه الخاصة في الحياة فلا وجود له، واستقلاله استقلال سطحي لا يدوم. إن الطريقة الوحيدة لأي شعب من الشعوب لأن يعبر عن وجوده هي الثقافة والوعي بالطابع الخاص الذي يميزه عن غيره، واللغة هي أداة هذه الثقافة ووسيلتها"[10].

ويلخص ألبرت "Allpart" الدور الاجتماعي للغة في أنها:

- تجعل للمعارف والفكر البشرية قيماً اجتماعية بسبب استخدام المجتمع اللغة للدلالة على

معارفه وأفكاره.
- تحتفظ بالتراث الثقافي والتقاليد الاجتماعية جيلاً بعد جيل
- تساعد الفرد على تكييف سلوكه وميوله حتى يناسب هذا السلوك تقاليد المجتمع وسلوكه.
- تزود الفرد بأدوات للتفكير[11].

ومن الواضح أن لغتنا العربية وحدت بين العرب في مختلف الحقب. وما تزال الرابط الذي يربط بين أبناء الأمة فيوحد مشاعرهم ويجمع أفكارهم في بوتقة اللقاء والتفاهم، كما أنها مستودع لتراث أمتنا والمحافظة على هويتنا من الضياع، وعلى شخصيتنا من الذوبان.

ولهذا كانت لغتنا العربية محط سهام أعداء الأمة على مرّ العصور، إذ أرادوا إبعادها عن أن تتبوأ مكانتها في الحياة، لأن التاريخ يعلمنا أنه ما وجدت أمة من الأمم إلا كانت لها لغتها الخاصة بها، وأن فقدانها لهذه اللغة يؤدي بها لا محالة إلى فقدان وعيها وإنيتها وذاتيتها، لأن المحتل يحرص دائماً على فصل ضحاياه عن ماضيهم بقطع وسيلة الاتصال التي هي صدى أسلافهم والقوة الطبيعية الحية لأمتهم، إذ إن اللغة المكتوبة هي الإسمنت الذي يضمن تماسك الوحدة الوطنية، وهي العروة الوثقى التي تربط بين الأحياء وتصل بالأموات، ويكتب بها سجل الأمم [12].

ولقد باءت محاولات المستعمرين في القرن العشرين في فرض لغتهم الأجنبية على بلادنا بالإخفاق، وعندما حصلت بلداننا على استقلالها، وتبوأت اللغة العربية مكانتها عادوا مجدداً إلى وصم لغتنا العربية بالتخلف وعدم مواكبة روح العصر، وأن على أبناء العربية حتى يلحقوا بركب العصر أن يتخلوا عن الأحرف العربية ويستبدلوا بها الأحرف اللاتينية وأن يكتبوا بالعامية لأن ثمة صعوبة في تعلم العربية الفصيحة وعجزاً عن تأدية الأغراض العلمية، ولقد ظهرت هذه الدعوة على يد المستشرق الألماني "سبيتا"، والمهندس البريطاني "ويلكوكس" والمستشرق البريطاني القاضي "ويلمور" والمستشرق الفرنسي "ماسينيون"[13].

وقد حمل نفر من أبناء العروبة ألوية هذه الدعوة في مصر ولبنان، وممن حملوها سلامة

موسى وعبد العزيز فهمي وأنيس فريحة وغيرهم. وفي الوقت نفسه كان ثمة مدافعون عن العربية من المستشرقين والمفكرين العرب، ومفندون لتلك الدعوة والكشف عن خطورة مراميها، إذ إن الهدف من هذه الدعوة يتمثل في إبعاد العرب عن حضارتهم وتراثهم، لأن هذا التراث الغني والضخم مكتوب بالعربية الفصيحة، وهؤلاء الداعون يرومون خلق فجوة بين ماضي هذه الأمة وحاضرها لأن هذا الماضي عامل حفز ودفع إلى الأمام، كما أن الهدف من العامية يتمثل في تثبيت التجزئة والانفصال بين البلدان العربية نظراً لاختلاف لهجة كل قطر عن الآخر، حتى أن العامية تختلف بين محافظة وأخرى في القطر الواحد، فهي عامل تفريق على حين أن الفصيحة عامل توحيد، وحدت بين العرب قديماً بطريق القرآن الكريم الذي نزل به الروح الأمين على قلب الرسول العربي الكريم آية لنبوته وتأييداً لدعوته ودستوراً لأمته، ولولا ذلك الكتاب العربي المبين لكان العرب بدداً.

ولقد أكسب القرآن الكريم اللغة عذوبة في اللفظ، ورقة في التراكيب، ودقة في الأداء، وقوة في المنطق وثروة في المعاني، ووسّع دائرة اللغة باستخدام ألفاظ جديدة.

وواكبت اللغة العربية مسيرة أمتنا، فكانت تقوى بقوتها وتضعف بضعفها، ذلك لأن اللغة العربية مرافقة للأحياء الذي يتكلمون، وقد اتسمت العربية بسمات متعددة إن في حروفها أو في مفرداتها أو في إعرابها أو في دقة تعبيرها أو في إيجازها، ولقد قال المستشرق الأمريكي "وليم باول": "إن للغة العربية من اللين والمرونة ما يمكنانها من التكيف وفق مقتضيات العصر، وهي لم تتقهقر فيما مضى أمام أي لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها، وهي ستحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي"(14).

بيدَ أنه من الملاحظ أن ثمة تسيباً لغوياً على نطاق الساحة القومية، وأن هناك ضعفاً في الأداء اللغوي للطلبة في مراحل التعليم العام وفي التعليم الجامعي، يضاف إلى ذلك كله محاصرة العامية للفصيحة في الاستخدام في مرافق الحياة وفي الأنشطة الإذاعية والتلفزية وعلى واجهات المحال وفي اللافتات والإعلانات والمسرحيات وغيرها، هذا من جهة، ومن

جهة أخرى محاصرة اللغات الأجنبية للعربية في التعليم الجامعي في أغلب جامعات الوطن العربي، والاستهانة باستخدام العربية في المحافل الدولية على الرغم من اعتمادها في هذه المحافل، وما أجمل مقولة أحد المستشرقين: "ما رأيت لغة في العالم أغنى من اللغة العربية الفصيحة، وما رأيت لغة في العالم مظلومة من أبناءها مثل العربية الفصيحة"!.

رابعاً: من أساليب تعزيز الانتماء للهوية القومية

لما كانت اللغة العربية الفصيحة عاملاً أساسياً موحداً بين أبناء الأمة كان الواجب القومي يفرض على أبناء العربية الالتزام بهذه اللغة في جميع المواقف، لأن ذلك حفاظاً على ذاتيتهم الثقافية في ظلال عولمة تروم إمحاء الثقافات الأخرى غير عابئة بالتعددية اللغوية والتنوع الثقافي ولقد كانت لغتنا العربية لغة عالمية في فترة من فترات تاريخ البشرية على النحو الذي هي عليه حالياً اللغة الإنجليزية، وأسهمت هذه اللغة في مسيرة الحضارة الإنسانية إذ إنها نقلت عن اللغات الأخرى واستوعبت وتمثلت ثم أسبغت الطابع العربي على ما نقلته وأضافت وأبدعت وابتكرت، وقدّمت خلاصة ذلك كله إلى أوروبا، وها هو ذا "جاك شيراك" رئيس الجمهورية الفرنسية يقول في كلمة افتتاحية له في مؤتمر اليونسكو عام 2001: "ما الفلسفة؟ وما الأدب؟ وما الشعر؟ وما الرياضيات؟ لولا الثقافة العربية التي اطلعت على الثقافات الأخرى، ثم قدمت للآخرين ثقافتها وخلاصة ما اطلعت عليه، وتجاوزت حدودها في الوقت الذي كانت فيه أوروبا منغلقة على نفسها".

وما دام للغة العربية إسهامها في مسيرة الحضارة البشرية وما دامت لها ذاتيتها القومية كان على أبنائها الحفاظ على هذه الرابطة التي تجمع بينهم أسوة بالأمم الحية وعنايتها بلغتها، وفيما يأتي عدد من الأساليب التي يجدر بنا نحن أبناء العربية اتباعها تعزيزاً لهويتنا القومية وذاتيتنا الثقافية.

1. دعم مسيرة التعريب

من بديهيات القول أن التعريب ضرورة قومية وتربوية وأمنية وإبداعية فهو:

- من الجانب القومي ضرورة قومية لأن اللغة مقوم أساسي من مقومات الوحدة
- من الجانب التربوي ضرورة حياتية وعلمية لأن المرء يفهم بلغته الأم أكثر مما يفهم بأي لغة أخرى.
- من جانب الأمن الثقافي ضرورة لإيقاظ الوعي بالغزو الفكري والتبعية الأجنبية المتزايدة.
- من جانب الإبداع والابتكار ضرورة للانتقال من استهلاك الأشياء إلى صنعها وبالتالي إلى منحها الطابع العربي والاسم العربي[15].

ومن يطلع على خريطة التعريب في وطننا العربي يجد أن ثمة انحساراً في مسيرته في بعض الجامعات العربية، إذ غدا التدريس فيها بالإنجليزية في الوقت الذي كان فيه الأمريكان يدرسون في الجامعة الأمريكية في بيروت إبان افتتاحها باللغة العربية!

وما زالت أصوات تنطلق في هذه الجامعات تشكك في قدرة اللغة العربية على تدريس العلوم الطبية والهندسية وغيرها من العلوم بهذه اللغة، على الرغم من أن تجربة التعريب في الجامعات السورية عبر قرن كامل ماثلة أمام الأنظار، وقد أثبتت نجاحها بكل كفاية، ويحوز المتخرجون فيها الدرجات الأولى في بعض الجامعات الأجنبية.

وعلى الرغم من أن الأمم الحية تعمد إلى تدريس مناحي الفكر كله في مختلف ميادين المعرفة بلغتها القومية، فها هي ذا دول أوروبا كبيرها وصغيرها، عريقها في العلوم وحديثها فيه، تدرس بلغتها القومية رغم بداية بعضها في التقدم العلمي، ورغم قلة الكتب العلمية المؤلفة بلغتها.

وعلى الرغم من أن التجربة الفيتنامية ماثلة أمام الأنظار في قوة الانتماء إلى اللغة الأم إذ أصدر "هوشي مينة" القائد الفيتنامي أمره بالفتنمة الشاملة، وكانت الفرنسة للمجتمع الفيتنامي قد

دامت أكثر من ثمانين سنة، وقد طلب أساتذة كلية الطب في هانوي مقابلته ليخبروه بأن فتنمة الدراسات الطبية عملية مستحيلة بسبب جهل أساتذة كلية الطب وطلبتها للغة الفيتنامية، وطلبوا إليه العدول عن قراره أو إمهال تطبيق الفتنمة على كلية الطب، واستمع القائد الفيتنامي لهم ساعات ثم حسم الموقف في نهاية المقابلة قائلاً: "يسمح لكم بالتدريس باللغة الفرنسية بصورة استثنائية هذه السنة فقط، مع ضرورة تعلمكم وطلبتكم اللغة الفيتنامية الوطنية خلال أشهر الدراسة التسعة، على أن تجري الامتحانات وفي سائر المستويات في نهاية السنة باللغة الفيتنامية، ثم تستأنف الدراسة في السنة المقبلة باللغة الفيتنامية"[16].

على الرغم من ذلك كله ما يزال بعض أعضاء الهيئة التدريسية في بعض جامعات وطننا العربي مصراً على قناعته بتدريس المواد العلمية باللغة الأجنبية، ويبين لنا الدكتور عبد الصبور شاهين هذه الحال قائلاً: "تبرز مأساة اللغة العربية بوضوح إذا ما رأينا أن العلوم التي تقوم عليها الحضارة الحديثة كالهندسة والطب والصيدلة والطبيعة والرياضيات كلها تدرس باللغة الإنجليزية في جامعاتنا، لا لأن اللغة العربية عاجزة عن تمثيل حقائقها ومصطلحاتها تمثيلاً ما، بل لأن هيئات التدريس في هذه المجالات هي العاجزة عن استعمال اللغة العربية أداة لنقل المعارف الحديثة ومتابعة ما ينشر في الخارج بفكر ولسان عربيين.

ولقد حضرت أخيراً مناقشة لرسالة في عالم الطفيليات يقول الدكتور شاهين، لنيل درجة الدكتوراه كانت نموذجاً للمأساة التي نعيشها نحن في الوطن العربي، ومعبرة عن التمزق العميق في أعلى مستويات البحث العلمي الحضاري: الرسالة محررة بالإنجليزية، وقدمت الطالبة ملخصاً عنها بالإنجليزية أيضاً، وبدأت المناقشة فتحدث المشرف بالعربية، وناقش أحد الأعضاء الطالبة بالإنجليزية، وناقش العضو الآخر الطالبة بالعربية، وكانت الطالبة ترد وتناقش بالإنجليزية وبالعربية في لغة مختلطة كاختلاط الرقع في الثوم المهلهل، وذلك في كلية الطب بإحدى الجامعات المصرية العريقة، ولو أن هذا الموضوع كان مطروحاً بجامعة دمشق لكتب بالعربية ولنوقش بالعربية دون أدنى صعوبة في الأداء أو في المصطلحات".

ويتابع الدكتور شاهين: "لنقلها بصراحة، إن اللغة العربية غير عاجزة، وإنما العجز في بعض بنيها سواء أكان العجز من النوع الثقافي المتمثل في ضعف إلمام أساتذة القاهرة باللغة العربية ومصطلحاتها، أم كان من النوع النفسي إذا افترضنا فيهم القدرة على استعمال اللغة، ولكنهم يحجمون عن خوض التجربة لفقر في الإحساس بالكرامة القومية، ذلك الإحساس الذي يدفع الجندي الأمين إلى اقتحام الأهوال، وقد كان خليقاً أن يدفع هؤلاء الأساتذة إلى صنع المحال"[17].

ولقد تناول الموضوع نفسه الدكتور كمال يوسف الحاج في كتابه: "في فلسفة اللغة" عندما يقول: "لا أبالغ إذا قلت إن معظم مشكلاتنا الاجتماعية سببه التنازل عن واحدنا الأحد، عن تاريخنا الواحد، عن لساننا الواحد، عن أرضنا الواحدة، عن تراثنا الواحد، عن إرادتنا الواحدة. وليس في العالم شعب يريد إدخال عفاف على عفافه، إن كل أمة عزيزة الجانب، أبية الخلق، ثابتة الإرادة، تقدم لغتها على لغة سواها، ولا تتناول أشياء الآخرين إلا من بعد أشيائها القومية، أي من وراء حدودها الوطنية"[18].

ولا يقتصر التعريب على التدريس في الجامعات بالعربية وإنما يشمل سيرورة اللغة العربية وانتشارها في جميع مرافق الحياة، على واجهات المحال التجارية واللافتات، والإعلانات والمعاملات وفي المؤتمرات والندوات التي تقام على الأرض العربية، وفي المحافل الدولية حيث تعتمد فيها العربية... إلخ.

يضاف إلى ذلك كله تعزيز الترجمة في اللغة العربية من اللغات الأخرى، وفي ذلك إغناء للثقافة العربية، إذ إن نسبة ما يترجم من اللغات الأخرى إلى العربية نسبة ضئيلة جداً.

2. الانفتاح على اللغات الأخرى والثقافات الأخرى

إن الالتزام باللغة القومية في التدريس وفي الأنشطة الثقافية وفي مختلف مرافق الحياة لا يحول دون الانفتاح على الثقافات الأخرى وتعلم اللغات الأجنبية في الوقت نفسه انسجاماً مع

طبيعة أمتنا وطابع قوميتنا، فهي قومية إنسانية لا تعرف التزمت وضيق الأفق، وهذا هو منهج أمتنا ماضياً، وهو منهجها حاضراً ومستقبلاً، ولا سيما أننا نعيش في ظلال عالم انفتحت فيه الحضارات على بعضها، وثمة تثاقف وتبادل ثقافي على النطاق العالمي، غدا فيه العالم قرية كونية صغيرة.

وفي إتقان اللغات الأجنبية إلى جانب اللغة القومية دعم للتعريب وارتقاء بمسيرته، ولقد كان رجالات التعريب الأوائل قدوة ومثالاً في إتقانهم لتخصصهم من جهة وللغتهم العربية من جهة ثانية وللغة الأجنبية من جهة ثالثة، وهذا ما أدّى إلى إسهامهم الفعال في حركة التعريب.

ولئن كانت اللغة الإنجليزية هي الأكثر شيوعاً وانتشاراً على الصعيد العالمي فهذا لا يحول دون تعرف ثقافات الأمم الأخرى ولغاتها في الشرق والغرب، وفي ذلك إغناء لثقافتنا العربية ودعم لها.

3. الحرص على نقاء اللغة وسلامتها

ويتمثل هذا الحرص في العملية التعليمية في المدارس والمعاهد والجامعات، كما يتمثل في الأنشطة الإعلامية في الكلمة المسموعة والمرئية والمكتوبة، مسلسلات تلفزية ومسرحية وسينمائية وحوارات وندوات، إذ ينبغي أن يحال دون استخدام العامية في هذه المناشط كافة، كما يحال دون استخدامها في اللافتات والإعلانات في الساحات، وعلى واجهات المحال، وان يصار في الوقت نفسه إلى استبعاد الأخطاء المرتكبة في اللغة الفصيحة، وان يكون ثمة حرص كبير على نقاء هذه اللغة وخلوها من الأخطاء في كل ما تقع عليه عين القارئ، وفي كل ما يتسمع إليه، وفي كلّ ما يعبّر عنه شفاهياً كان أو كتابياً.

ومن جهة أخرى لا بدّ من استخدام العربية الفصيحة في تسميات المحال التجارية وما يستخدم على واجهاتها، إذ ليس ثمة مسوغ لاستخدام "سوبر ماركت" و"سيتي مول" و"سلام شوبنج سنتر للمحجبات" و"سنتر أبو علي"... إلخ، ما دامت البدائل بالعربية موجودة

ونرة أخرى لنتعظ من تجارب الآخرين ففي فرنسا تشن حملة واسعة للدفاع عن اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية ضدّ تسرب اللغة الإنجليزية والثقافة والأمريكية إلى فرنسا، وقد أعلن وزير الثقافة الفرنسي أن الإنجليزية والثقافة الأمريكية تؤلفان خطراً يهدد اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية، وكان ذلك إثر انتخاب "ميتران" رئيساً للجمهورية الفرنسية عام 1981، كما أعلن وزير البحث العلمي الفرنسي آنئذ أن وزارته لن تدعم أي مؤتمر أو لقاء دولي تكون أعماله بلغة أجنبية على ارض فرنسا، وفي فرنسا لجنة عليا للغة الفرنسية أقامت إحدى جمعياتها دعاوي ضدّ شركات فرنسية استخدمت كلمات إنجليزية في إعلاناتها، فأدانتها وفرضت عليها غرامات مالية لأنها اعتدت على لغة البلاد وفضلت عليها لغة أجنبية!(19).

4. الالتزام بالعربية في المحافل الدولية حيث تعتمد العربية

من المؤلم حقاً أن يتحدث بعض أبناء العربية في المحافل الدولية باللغة الأجنبية ولا يتحدثون بلغتهم العربية على الرغم من اعتمادها لغة عالمية رسمية بين اللغات الست المعتمدة في الأمم المتحدة والمنظمات التابعة كاليونسكو واليونيسيف وغيرهما، وليس ثمة مسوّغ لهذا التصرف، إذ من بديهيات الأمور أن يعتز المرء بلغته الأم، بلغته الوطنية، وأن يكون مزهواً باستخدامها والتعبير بوساطتها عن أفكاره ومشاعره وآرائه، ويتساءل أحدنا كيف نطلب من الآخرين أن يحترمونا ونحن لم نحترم أنفسنا ولا ذاتيتنا الثقافية ولا لغتنا، وقديماً قال زهير بن ابي سلمى: "ومن لم يكرّم نفسه لا يكرّم"

5. ربط المغتربين بلغتهم القومية

ثمة شريحة كبيرة من أبناء الأمة العربية تعيش في خارج الوطن العربي، وتعد هذه الشريحة من المغتربين ثروة قومية بما لديها من الإمكانات الفكرية والثقافية والمادية وفي مختلف الجوانب، ويمكن الإفادة أيما فائدة من هذه الثروة القومية فهم امتداد لذويهم المقيمين على أرض الوطن العربي، وهم سفراء لأمتهم في بلاد الاغتراب، والممثلون لثقافتهم وحضارتها، والمناصرون لقضاياها، والمدافعون عن حقوقها، وإذا كان عليهم واجب تجاه

الأمة فإن على بلدانهم مسؤولية توطيد العلاقة بهم وتعرف قضاياهم ومشكلاتهم ومدهم بأفانين الثقافة القومية وضروبها وألوانها ليظلوا على صلة وثيقة بقضايا أمتهم.

ومن الواضح أن اللغة القومية هي الرابطة التي تربطهم بثقافة أمتهم وهي الرابطة التي تجعل أبناءهم وأحفادهم مرتبطين بالوطن والآباء والأجداد، فتعليم العربية لهؤلاء واجب على دولنا، وتعلّم لغة الآباء والأجداد واجب مقدس على هذه الشريحة المهاجرة وتعليمها للأبناء حتى تبقى الجسور ممتدة بين الماضي والحاضر وبين الحاضر والمستقبل.

ومن هنا كان افتتاح المراكز الثقافية العربية في بلدان المهجر حيث توجد الجاليات العربية من الأهمية بمكان، ربطاً للمغتربين بأمتهم ولغتها العربية، وتعريفاً للآخرين بثقافتنا العربية في الوقت نفسه.

6. نشر روائع الثقافية العربية وقيمها الإنسانية

من الملاحظ أن ثمة تعتيماً وتشويهاً لثقافتنا العربية، ولما كانت لغتنا مستودعاً لتراث أمتنا كان علينا واجب نقل الجوانب المضيئة والمشرقة من تراثنا إلى الآخرين وتعريفهم بإبداعات حضارتنا ومساهمتها في مسيرة الحضارة الإنسانية، فأمتنا ذات بعد حضاري ممتد في أعماق التاريخ، اخترعت الأبجدية وقدمتها للعالم ونشرت المعرفة والعدالة والقيم الروحية والإنسانية، واحترمت الثقافات الأخرى وقدرت أصحابها، وكان معيارها "قيمة كل امرئ ما يحسن"، "ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى"، و"خير الناس أنفعهم للناس".

ومن هنا كان ثمة تلازم بين قوميتنا وإنسانيتها، فهي قومية إنسانية ، تكره العنصرية والاستعلاء والعدوان، وتروم السلام، وتقف إلى جانب المستضعفين في كل مكان، وتحترم الإنسان أنّى كان، وتريد الخير للناس كافة.

7. حسن الاختيار لما يقدم للناشئة

ولئن كان من سبل دعم الهوية القومية نشر روائع الثقافة العربية وقيمها الإنسانية وتعريف

الآخرين من أبناء الثقافات الأخرى بها، فإن من السبل أيضاً وفي الوقت نفسه حسن اختيار ما نقدمه لأجيالنا وناشئتنا، حتى ينشأ الناشئ من أبناء أمتنا معتزاً بتراث أمته وبماضيها المجيد وإبداعاتها في مختلف الجوانب الثقافية، وبإسهاماتها في مسيرة الحضارة البشرية، وبقيمها الإنسانية ونزعتها الغيرية، ذلك لأن الجوانب المضيئة من تاريخ أمتنا تكوّن حافزاً يدفع إلى الأمام لاستئناف المسيرة ولمواصلة ما قدمته الأمة من قبلُ للآخرين على يد أبنائها المعاصرين، ألم يقل شاعرنا:

خيرُ الناس ذو حسبٍ قديمِ	أقـــام لنفســـه حسباً جديداً
وشرُّ العالمين ذوو خمولٍ	إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا

8. سلامة اللغة العربية في تطويرها

من الواضح أنه لا يمكن الوقوف في وجه تطور اللغة، ولا يمكن الحؤول دون تطورها، لأن اللغة أقوى من أي سدود تقف في طريقها، إذ إن المحافظة على سلامة اللغة لا تنفي أن اللغة في تطور دائم، ولا سلامة للغة إلا في هذا التطور، فإذا كان نريد للغتنا العربية السلامة فلا تكون السلامة في الجمود، ولكن في الاحتفاظ بأصول اللغة وقواعدها ونظامها ثم في تعبيرها عن حاجات العصر ومتطلباته، "والذين يريدون المحافظة على اللغة، فيرفضون كل جديد مثلهم كمثل الذي يريد أن يحافظ على جمال الأزهار وطيب رائحتها بوضعها في خزائن حديدية، فتؤدي تلك المحافظة إلى ذبولها، والمحافظة الصحيحة على الكائنات الحية لا تكون إلا بتطويرها وجعلها مطابقة للبيئة التي تعيش فيها"(20).

والحفاظ على لغتنا ينبغي ألا يدفعنا إلى التعصب والتزمت ضد كل تطور، فأكمل اللغات وأرقاها ما واكب روح العصر، واستوعب متطلباته، ولغتنا العربية واكبت وستبقى مواكبة روح العصر ما دام فيها من عناصر البقاء والخلود ما يعصمها عن الجمود والتحجر، وما دام القرآن الكريم ينبوع هذه اللغة ومرجعها الأول.

بيد أن محاولات التيسير التي حمل لواءها بعض الباحثين لا بدّ من أن تحافظ على أصول اللغة وقواعدها، إذ إن لكل لغة في العالم قواعدها ومعاييرها، والخروج على القواعد لا يعد تطويراً لها ولا حفاظاً عليها.

9. إتقان أساسيات اللغة

حبذا لو كان من معايير الترقية في مختلف الميادين إتقان أساسيات اللغة، إذ من المعيب أن يعد المرء مثقفاً وهو لا يعرف أساسيات لغته، على أن يطبق هذا المعيار في الترقية بالنسبة إلى المعلمين وأعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات، وعلى العاملين في مختلف مرافق المجتمع، وفي جميع التخصصات.

ومرة أخرى لنتعظ من تجارب الآخرين فلقد أصدر المجلس القومي لمدرسي اللغة الإنجليزية في بريطانيا قراراً أوجب على كل مدرس أن يعد نفسه أولاً لتدريس اللغة الأم حتى لو كان مدرساً للتاريخ أو الكيمياء أو الاجتماع أو غير ذلك من فروع المعرفة.

10. الكشف عن زيف الاتهامات الموجهة ضد اللغة العربية

ثمة اتهامات متعددة يوجهها المتحاملون على الأمة العربية ولغتها، إذ يصف بعضهم لغتنا بالقصور تارة، وبعدم مواكبة روح العصر تارة أخرى، وبالصعوبة تارة ثالثة، وبخلو الأدب العربي من ومضات الوجدان تارة رابعة، وبالعمومية في مفرداتها تارة خامسة... إلخ.

وهذه الاتهامات كافة عارية عن الصحة، هدفها محاربة هذه الرابطة التي ما تزال توحد بين أبناء الأمة، وعلى أبناء الأمة الغيارى على لغتهم أن يكشفوا عن زيف هذه الاتهامات، وأن يقدموا الأدلة على غنى لغتنا وتميز السمات التي تتحلى بها.

11. الاهتمام بالصناعات الثقافية ذات الطابع العربي

من الملاحظ أن أغلب اللعب التي يلعب بها أطفالنا إنما هي مستوردة من الخرج، وأن ثمة غياباً كبيراً للإنتاج المحلي العربي لأفلام الأطفال ولا سيما الرسوم المتحركة التي يتلهف

أطفالنا لرؤيتها، إذ إن أفلام الرسوم المتحركة المتوافرة بالعربية مترجمة في الأعم الأغلب، ومن الملاحظ أيضاً أن مضمون هذه البرامج لا يقتصر على تمجيد العنف والنزعة إلى العدوان والعنصرية والاستعلاء واستثارة الشهوات وتنمية التفكير الخرافي المجانف للأسلوب العلمي، وسيرورة قيم الاستهلاك، وإنما يتجاوز ذلك إلى تقديم الصور المشوهة عن الوطن العربي، وربما كان فيلم "علاء الدين" أنموذجاً صارخاً لهذا التقديم المشوه، ففي 28 مارس 1993 وزعت جوائز الأوسكار في الولايات المتحدة الأمريكية، ورشح فيلم "علاء الدين" للرسوم المتحركة من إنتاج "والت ديزني" لعدة جوائز نال منها جائزتين لأفضل موسيقى ولأجمل أغنية بعنوان "علم جديد". وهذا الفيلم يبدأ أغنية تصف بلاد علاء الدين على النحو الآتي:

"أنا قادم من أرض بعيدة
من مكان بعيد
حيث تجوب قوافل الجمال
وحيث يقطعون أذنيك إذا لم يعجبهم وجهك،
وهذا عمل بربري ولكنه بيتي".

ولكن يلاحظ من خلال هذه الأغنية التعصب والاستعلاء وتشويه الحقائق وتزوير التاريخ[21].

ولا بد من إيجاد البديل لأطفالنا والاهتمام بالصناعات الثقافية للصغار والكبار، ولكم هو مفيد أن يكون هناك مؤسسة للتمويل وصندوق عربي لدعم هذه الصناعة على المستوى القومي، لأن إنتاج الوطن العربي لهذه الصناعات الثقافية إنما هو ضرورة قومية، وتوفير هذه الصناعات وعلى الصعيد القومي هو توفير لجانب هام من الأمن الثقافي العربي ورفض عملي للتبعية ودعم كبير للتنمية الثقافية العربية في داخل الوطن العربي وخارجه، ذلك لأن الأمن الثقافي العربي كالأمن الغذائي لا يمكن ضمانه إلا بامتلاك الأدوات والأجهزة المتحكمة في

إنتاج الثقافة ونشرها، ولئن كانت كل الصناعات الثقافية أساسية ومهمة فإن التركيز على الإلكتروني المتطور منها بات أكثر شأناً وخطراً بالنسبة لمستقبل الوطن العربي.

المراجع

(1) الدكتور محمود أحمد السيّد – في طرائق تدريس اللغة العربي – جامعة دمشق – الطبعة الثالثة 1988 – ص 10.

(2) الدكتور محمد أحمد السيد – تعليم اللغة بين الواقع والطموح – دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق 1988 – ص 262.

(3) الدكتور محي الدين صابر – قضايا الثقافة العربية المعاصرة – دار العربي للكتاب 1983 – ص 120.

(4) أبو خلدون ساطع الحصري – محاضرات في نشوء الفكرة القومية – مطبعة الرسالة – القاهرة 1951.

(5) مولود قاسم نايت بلقاسم – إنية وأصالة – الجزائر – منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية – مطبعة البعث – قسنطينة 1975 – ص 72.

(6) أبو خلدون ساطع الحصري – ما هي القومية؟ – أبحاث ودراسات في ضوء الأحداث والنظريات – بيروت – دار العلم للملايين – ط 2 – 1963 – ص 54 و60.

(7) –Pierre Clarac - L'enseignement du français - Presses universitaires de France - Paris 1998.

(8) عثمان السعدي – العبرنة الشاملة والتحكم بالتكنولوجيا المعاصرة في الكيان الإسرائيلي – جامعة الكويت – كلية التربية – قسم أصول التربية – ص 5.

(9) مولود قاسم نايت بلقاسم – المرجع الخامس – ص 74.

(10) عثمان السعدي – المرجع الثامن – ص 6.

(11) الدكتور عبد العزيز عبد المجيد – اللغة العربية – الجزء الأول – دار المعارف بمصر – 1969 – ص 19.

(12) المرجع الخامس – ص 68.

(13) الدكتور محمد أحمد السيد – شؤون لغوية – دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان – 1989 – ص14.

(14) الدكتور محمد أحمد السيد – اللغة العربية وروح العصر – مجلة التعريب – السنة الثالثة عشرة – العدد الخامس والعشرون 2003 – ص14.

(15) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – الخطة الشاملة للثقافة العربية – تونس – 1992.

(16) المرجع الثامن – ص 6.

(17) الدكتور عبد الصبور شاهين – ديوجين مصباح الفكر – العدد الرابع والثلاثون – السنة العاشرة، ص10.

(18) الدكتور كمال يوسف الحاج – في فلسفة اللغة – دار النهار – بيروت – 1976 – ص 311.

(19) الدكتور محمود أحمد السيد – مقالات في الثقافة – وزارة الثقافة السورية – 2004 – ص 83.

(20) الدكتور محمود كامل حسين – اللغة العربية المعاصرة – دار المعارف بمصر – القاهرة 1976 – ص4.

(21) الدكتور محمود أحمد السيد – في قضايا الثقافة – الطبعة الأولى – دمشق 2002 – ص 40.